



فضل الله تعالى على عباده

(023) سورة المؤمنون

اللقاء السادس من تفسير سورة المؤمنون : شرح الآيات 74 - 90

2024-11-09

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:
هذا لقاءنا السادس من لقاءات سورة المؤمنون، ومع الآية الرابعة والسبعين من السورة وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّوْطِ لَنَّاكِبُونَ (74)

(سورة المؤمنون)

الإيمان دائماً يعطي سلوكاً صحيحاً وعدم الإيمان يؤدي إلى الانحراف:

يتحدث الله تعالى بدءاً بهذه الآية عن صنف من الناس، سيمتهدم الأساسية أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ويربط جلّ جلاله بين عدم إيمانهم بالآخرة وبين سلوكهم فيقول تعالى: (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّوْطِ لَنَّاكِبُونَ) لا يؤمنون بالآخرة هذه عقيدة (عَنِ الصَّوْطِ لَنَّاكِبُونَ) هذا سلوك، ناكبون أي منحرفون، مائلون من صراط الحق إلى صراط الباطل، فنكّب عن الصراط أي مال عنه إلى طرقٍ معوّجة، ولمّا قال (الصَّوْطِ) بال التعريف، ففهم منها للعهد أنه الصراط المستقيم الذي يرتضيه الله تعالى لعباده، ولمّا قال (لَنَّاكِبُونَ) إذا هم منحولون إلى طرقٍ معوّجة، فالصراط هو الصراط المستقيم، فدائماً العقيدة تنقلب إلى سلوك، فلما تركوا الإيمان بالآخرة وما فيها من ثوابٍ وعقاب، تركوا الصراط المستقيم ومالوا عنه إلى الطرق المعوّجة التي فيها هوى النفوس، وهذا متكرر جداً في كتاب الله تعالى، منه قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكذِّبُ بِالْإِيمَانِ (1) قَدْ لِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (2)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَدْ لِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (3)

(سورة الماعون)

لأنه يُكذّب بالدين، فمادام ليس هناك منهج يمنعه فليفعل ما يشاء، فإنه يدعُ اليتيم، وهم (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّٰرِطِ لَنَٰكِبُونَ) ومنها قوله صلى الله عليه وسلم:

{ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ }
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صَيْفَهُ {

(أخرجه البخاري ومسلم)

هذه عقيدة وذاك سلوك (وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) عقيدة، (فَلْيُكْرِمْ صَيْفَهُ)، (وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ) فإذا الإيمان دائماً يعطي سلوكاً مستقيماً، وعدم الإيمان أو التكذيب يعطي سلوكاً منحرفاً، لذلك لما تركوا الإيمان بالآخرة وهو من الغيب، عاشوا عالم الشهادة كما تشتهي أنفسهم (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّٰرِطِ لَنَٰكِبُونَ) أي مائلون ومنحرفون وذهابون إلى الطرق المعوجّة.

الأساليب التي يتبعها الله جلّ جلاله في تربيته لعباده:

ثم يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَوْ رَجَمْتَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّنْ صُدْرٍ لِّلْجَا فِي طُعْيَانِهِمْ تَعْمَهُونَ (75)

(سورة المؤمنون)

ربنا جلّ جلاله له مع الناس أساليب في التربية، الواحد مّا يتبع مع أولاده أساليب في التربية، فيقول لك أحياناً أنا أُؤدّب ولدي بالنظرة، فهناك من الأولاد من تنفع معه النظرة، فإذا شدّ إليه والده نظره فهم أنه قد أخطأ **والجُر تكفيه الإشارة**، والأصل أنّ الإنسان لا ينتقل إلى المرحلة العليا من التأديب إذا نفعت المرحلة الأدنى، وهناك من أنتقل معه من النظرة إلى العتاب فأعاتبه، وهناك من أنتقل معه من العتاب إلى العقاب، وهناك من ينفع معه الثواب فأقول لك: هذا الطفل سبحان الله إذا عاقبته فإنه لا يُجدي ذلك معه نفعاً، فأنا غالباً أشجّعه، أقول له أنت فهم، وأنت محترم، وأنت وأنت، ولكِ عندي كذا فينفع، لكن ولدٌ آخر يخشى العقاب وهكذا، فالإنسان له أساليب في التربية عند من يعولهم، سواءً كان معلماً، أو مربيّاً، أو أباً، أو أمّاً إلى آخره، ربنا جلّ جلاله يتبع كثيراً من هذه الأساليب التي يتبعها في التربية في تعامله معنا جلّ جلاله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ؕ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)

(سورة الشورى)

لكن للتشبيه، فرينا جلّ جلاله من أساليبه أنه يرحم عباده حيناً، ويُعذّبهم حيناً، ويُنزل بهم المصائب حيناً، ويرفع عنهم المصائب حيناً، وهذا الأمر نعيشه جميعاً نحن، يعني أحياناً يمرض أحدنا فيشعر بضعفه فيلتجئ إلى ربه، وأحياناً يُرزق برزق جيد في عمله ما كان يتوقّعه، فيُقيل على الله تعالى ويشكر لله تعالى وهكذا.
من الأساليب الربانية في التعامل مع عباده أنه يؤدّبهم بالموعظة، فإذا قرأت في كتاب الله تجد تأديباً من الله بالموعظة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (53)

(سورة الإسراء)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (12)

(سورة الحجرات)

هذه تربية، يُربينا الله تعالى، أحياناً بالقصة يذكر لنا قصص السابقين، وكيف اغترّ بعضهم بالمال فأهلكه الله، إذاً الرسالة التي يريد الله إبصالها إلينا، لا تغتروا بالمال، ولا تتعالوا به على عباد الله، هذا جانب يؤدّب الله تعالى به عباده، وقد يؤدّب الله بعض عباده بالعقوبة الرادعة، وبالمصيبة أحياناً، وهذا طرفٌ من معاني قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَنذِيقَهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَلْوَنِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

(سورة السجدة)

العذاب الأكبر هو عذاب يوم القيامة (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) فينتفعون بهذه المصيبة، تحلُّ بهم مصيبة فيلتفتون إلى الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَتَبْلُوكُم بِسَيِّئِ مَنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصِ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرَاتِ وَبَشْرِ الصَّابِرِينَ (155)

(سورة البقرة)

وهذا أيضاً مما يؤدّب الله تعالى به عباده، وهناك من يؤدّبهم بالرحمات، فيُصدق عليهم نعمه فيعودون إليه ويشكرون له عطاءه وكرمه جلّ جلاله.
وهناك من يستدرجهم ربنا جلّ جلاله، وهنا تبدأ المصيبة الكبرى والعياذ بالله، كما يقول صلى الله عليه وسلم:

{ إذا رأيت الله يُعطي العبد ما يُحِبُّ وهو مُقيم على معاصيه فأئماً ذلك له منه استدراجٌ ثمَّ نزع بهذه الآية {قَلَمًا تَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَفُطِعَ ذَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:

(أخرجه الطبراني)

مُقيَّمٌ على معصية والله يوالى اليعم عليه، ثم تلا قوله تعالى: **(فَلَمَّا تَشَاوَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)** ما قال باب وإنما أبواب، وما قال شيء وإنما كل شيء **(حَتَّىٰ إِذَا فَرَّجُوا بِمَا آوُوا أَحَدْتَاهُمْ بَعْتَهُ فَاذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)** ثم يكون العذاب الشديد والعياذ بالله، فهذه سُتْنُ الله تعالى في التعامل مع خلقه، سَمَّهَا الأساليب، سَمَّهَا السُّتْنُ، لكن التسمية القرآنية هي السُّتْنُ، هذا أفضل تسمية له.

سُتْنُ الله تعالى في تعامله مع الذين نكبوا عن الصراط ولم يؤمنوا بالآخرة:

فالله تعالى في هذه الآيات بدءاً من الآية الخامسة والسبعين يتحدث عن بعض سُتْنِهِ في التعامل مع من نكبوا عن الصراط ولم يؤمنوا بالآخرة، فقال تعالى: **(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ صُتْرٍ) أسلوب من الأساليب، يعني لو أنّ الله تعالى رحمهم، أنزل رحمته عليهم ورفع ونزع عنهم الصُّتْرَ الذي أصابهم، فحط، جوع، تسلط عدو خارجي (وَكَيْفَعْنَا مَا بِهِم مِّنْ صُتْرٍ) ماذا ستكون النتيجة في علم الله تعالى الذي يعلم كل شيء؟ هؤلاء العباد الذين لم ينفع معهم هذا الأسلوب التأديبي لأنهم لا يؤمنون بالآخرة قال: (لَلْجُودِ فِي طُعْيَانِهِمْ) يعني لما يجدون نعم الله عليهم كثيرة، والصُّتْرُ قد رفع عنهم، يتمادون في الطغيان، (لَلْجُودِ) أي لتمادوا في طغيانهم، والطغيان هو مجاوزة الحد، ومنه سُمِّيَ الطاغية طاغيةً لأنه يتجاوز الحدود فيظلم عباد الله تعالى ويكفر بالله، فإذا تجاوز الحدود أكثر وأكثر سُمِّيَ الطاغوت، الطاغوت أعلى من الطاغية، (لَلْجُودِ فِي طُعْيَانِهِمْ) حتى الماء ربنا جل جلاله وصفه فقال:**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11)

(سورة الحاقة)

فكل شيء يبقى في حده تستقيم فيه الحياة، فإذا طغى أي تجاوز حده المرسوم له من الله تعالى حصلت الفتنة في الأرض، لو أنّ كل إنسان التزم حدوده، لالتزم الكون حدوده فتوقفت المشكلات، لكن ربنا جل جلاله يطغى أحياناً الأرض فتزلزل، ويطغى الماء فيغرق، ويطغى الماء أي يتجاوز حدوده فتحدث الفيضانات والسيول، وهذا من أعظم أسبابه أو من أكثر أسبابه، طغيان الإنسان نفسه، إذ أنه يتجاوز حدوده التي رسمها الله تعالى له في التعامل مع الكون، وفي التعامل مع الحياة، وفي التعامل مع أخيه الإنسان، وفي التعامل مع ربه، يطغى يتجاوز حدوده، قد يتجاوز عبوديته، فيناله والعياذ بالله، فالطغيان أساس كل مشكل في الكون فقال: **(لَلْجُودِ فِي طُعْيَانِهِمْ)** أي لتمادوا في تجاوز الحدود التي رسمها الله تعالى لهم، بأنهم عبادٌ لله تعالى يجب أن يلتزموا منحه.

(يَعْمَهُونَ) أي يتخبطون ويتحيرون يعني من العمه، وهو ما يشبه العمى ولكن من التخبط والتحير، هذا أسلوب وهو أسلوب الرحمة ورفع الصُّتْرُ. ثم قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَقَدْ آخَذْنَاكُمْ بِالْعَذَابِ لَمَّا اسْتَكْبَرْتُمْ وَمَا تَنْصُرُكُمْ مِنْ شَيْءٍ (76)

(سورة المؤمنون)

يعني الأسلوب الثاني أيضاً لم ينفع معهم، أخذهم الله تعالى بالعذاب أي شدد عليهم قبل ذلك بالعذاب، من القحط، من الجوع، ونقص الأموال إلى آخره **(وَلَقَدْ آخَذْنَاكُمْ بِالْعَذَابِ لَمَّا اسْتَكْبَرْتُمْ)** يعني لا تنفع معهم الرحمة كما أنه لا ينفع معهم العذاب.

(فَمَا اسْتَكْبَرُوا) أي ما خضعوا لربهم **(وَمَا يَنْصُرُكُمْ)** أي لا يتدللون له بالدعاء، ويطلبون منه كشف العذاب، ويأرون إليه بالدعاء، وكأن الله تعالى يقول لعباده، إذا حصلت الرحمة وكشف الله تعالى الصُّتْرَ عنكم، فيجب أن تشكروا له وأن تقيموا منهجه في الأرض، لا أن تطغوا في الأرض.

وإذا أخذكم بعض المصائب بذنوبكم، فيجب أن تتوبوا وترجعوا إليه وتجاروا إليه بالدعاء، لكن هذا لم يحصل عند هؤلاء المُفكرين للبعث، لا عند الرخاء ولا عند الشدة، فجاء العقاب الأخير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77)

(سورة المؤمنون)

يَصُورُ المشهد وكأن هناك باباً قد وضع العذاب خلفه ينتظرهم، فلَمَّا فُتِحَ الباب انهار عليهم العذاب ووضب فوق رؤوسهم صاباً، وعذاب الله شديد والله تعالى هو القوي.
قال: (إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) أي أصبحوا متخبطين بانسين، لا يرجون رحمةً ولا يعرفون نجاةً، فإذا ربنا جلَّ جلاله رحمهم فما استجابوا، وأصابتهم المصائب فما رجعوا إلى ربهم، ففتح عليهم باب العذاب الشديد، أيضاً بدلاً من أن يعودوا إلى ربهم ويصطلحوا معه، إذا بهم بانسون قانطون من رحمة الله.

الله تعالى امتنَّ على عباده بنعمة الحواس وأهمها السمع والبصر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (78)

(سورة المؤمنون)

ما الذي جعلهم يُكثرون العذاب، يُكثرون العقاب، يُكثرون الآخرة، يتكثرون عن الطريق المستقيم؟ أنهم لم يستخدموا ما أعطاهم الله تعالى إياه، من السمع والأبصار والأفئدة، لذلك امتنَّ الله على عباده بعد ذلك فقال: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ) الله تعالى هو الذي خلق للإنسان (السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ السمع والأبصار هي جزء من الحواس الظاهرة، العلماء يقولون الحواس الظاهرة وأحب أن أضيف دائماً لفظ الظاهرة، لأنَّ هناك حواساً غير ظاهرة يُدركها الإنسان، لكنه إلى الآن لا يُدرك كيف يُسمِّيها، أو يعرف كيف يشعر بها الإنسان.

أحياناً يُسمونها الحاسة السادسة عند الأم مثلاً، أو الشعور بشيء يجري في مكان آخر، يقول لك: أحسست بهذه اللحظة أنه جرى شيء، انقبض قلبي، هناك حواس، أحياناً حاسة اللمس تدرك فيها مثلاً النوع، لكن أحياناً هناك تقبُّل السميك والرقيق وأنت مُغمص عينيك، فهناك حواس غير ظاهرة إلى الآن لا يُدرك كلها، فسبحان من أعطى الحواس للإنسان، تظهر جليَّة أحياناً بالأعمى، ما الذي يجعله يُحس بأشياء لا يُحس بها إلا المُبصر افتراضياً لكنه يعرفها.

أنا أعرف شخصاً أعمى رافقتي مرةً فدلتني على بيته، كنت إذا أصل إلى مكان فيقول لي خذ يمينك بالسيارة، هناك شيء لا يوجد في الإنسان أنه يعطي الله تعالى من الحواس للإنسان، خاصة الذي فقد شيئاً من حواسه الظاهرة ما نعجز عن إدراكه، فنقول الحواس الظاهرة، فالله تعالى لما أعطى الإنسان الحواس الخمس الظاهرة التي أدركناها، وهي السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس، هذه الحواس الخمسة الظاهرة، أهم حاستين فيها هما السمع والبصر، للإدراك والمعرفة، لإدراك الأشياء العالية، وليس أن يشم فيعرف أن هذه رائحة الكمون مثلاً، لا، الأشياء المهمة نحتاج إلى إدراكها سمعاً وبصراً، والسمع أهم من البصر، لأنه أولاً مخلوق قبله، فالجنين يسمع في بطن أمه، لكنه لا يُبصر إلا بعد فترة من ولادته، ولا يكتمل بصره إلا بعد فترة أطول كرؤية كاملة، بينما هو يسمع وهو في بطن أمه صوت أمه، فالسمع أقوى من البصر، يعني مخلوق أولاً، لذلك يُقدِّمه الله تعالى في معظم الآيات إلا في الآخرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ تَاكُسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12)

(سورة السجدة)

السمع مُقدِّم على البصر في الخلق:

لأنهم رأوا بأعينهم أولاً، لكن السمع مُقدِّم على البصر في الخلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فُلْهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (23)

(سورة الملك)

(الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) أيضاً السمع لا يمكن حبه حتى بالنوم، فالإنسان إذا نام لا يرى لكن يستيقظ على السمع، البصر من اتجاؤ واحد، لكنك لا تُبصر ما هو وراءك، أمَّا السمع فهو من الجهات الست، فحاسة السمع في الإدراك هي أهم من حاسة البصر، لذلك تجد من ابتلاه الله تعالى بفقدان البصر، من تعلموا ووصلوا إلى الدرجات العُليا بالسمع، لكن الذي يفقد سمعه ابتداءً يفقد نطقه، فمن لا يسمع لا يتكلم، فعنده مشكلة في التعلم كبيرة جداً بخلاف الأعمى، طبعاً البعض يتحرَّج من كلمة الأعمى، وربنا عزَّ وجل ذكر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2)

(سورة عبس)

هي وصف يعني ليس فيها مشكلة، وأن نستبدالها بالضرير أو الكفيف لا، الأعمى هو الذي ولد بلا بصر لغةً، والضرير هو الذي لحقه ضررٌ مُعَيَّن في بصره فأصبح في الرؤية مشكلة، والكفيف هو الذي كَفَّ بصره بعد عُمر، ربما بالأربعين أو الخمسين كَفَّ بصره عن الرؤية، فهي كلها صحيحة لغةً، لكن الأعمى الذي ولد لا يرى فهو أعمى، لكن أعمى البصيرة أشد من أعمى البصر، فالسمع مُقَدَّم على البصر لهذه الاعتبارات، لذلك ربنا جلَّ جلاله لَمَّا تحدث عن أصحاب الكهف قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَصَرْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11)

(سورة الكهف)

العيون مُغمضة نائمون، لكن ما الذي سبب قضمهم أو سيقظهم أو سبب النوم العميق الذي يجعلهم لا يستيقظون؟ السمع، فاضرب الله على آذانهم فما عادوا يسمعون شيئاً، لذلك بدأ بالسمع لأنه هو الأهم بالإدراك، فإذا تعطل السمع، أي لم يعد هناك مدخلات عن طريق السمع لا يسمع، لا يسمع ليس حقيقةً، لكنه لا يستجيب لما يسمعه، إذاً هو لا يسمع، يعني إذا إنسان لا يسمع وتقول له انتبه هناك حفرة ستقع فيها، هو لا يسمع حقيقةً أصم، فوقع في الحفرة هذه مشكلة، لكن إذا كان إنسان يسمع وقلت له هناك حفرة إياك أن تقع فيها، فقال لك أنت لا تتدخل فأكمل ووقع فهو لا يسمع، لأنه لو يسمع لاستجاب، فالنتيجة واحدة، فعندما نقول إنسان لا يسمع بمعنى لا يستجيب، فهو لا يسمع فعلاً، لأنه إذا السمع لم يُحقَّق النتيجة منه فالأمر سبباً، فالله تعالى قال: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ) من أجل أن تسمع فتنفع فتستجيب، (وَالْأَبْصَارَ) من أجل أن تستدل من خلال ما خلقه الله تعالى على وجوده، وعلى أنه سيبعث الناس ويحاسبهم (وَالْأَفْئِدَةَ) التي هي القلوب، جمع فؤاد، والفؤاد هو القلب، والفقه والعقل يكون في القلب، كما تحدثنا سابقاً.

العقل من يقوم بالربط بين المدخلات والمخرجات:

فلَمَّا لم يُدخَل من سمعه ولا من بصره، يعني عطلَّ المدخلات، فهو عملياً عطلَّ المعالجة الصحيحة فعطلَّ المخرجات، لأنَّ العقل تحدثنا سابقاً أنه الربط، فهو عملية المعالجة التي إذا صحَّت المدخلات، وصحَّت المعالجة، تخرج المخرجات صحيحة، البصر يرى نار مُتَّقدة ويرى يده، وضَع اليد على النار احترقت، العقل يربط، يقول لك هذه النار تُحرق اليد، فالعقل هو ربط بين الأمور، لذلك قال له:

{ قال رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أُرْسِلُ نَافَتِي وَأَتَوَكَّلُ؟ قال: اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ }

(أخرجه شعيب الأرنؤوط وابن حبان)

أي اربطها، فعملية الربط بين الأمور هي العقل، وأوضح مثال عليها هو يعلم المنطق، كُنَّا نقول دائماً مقدمة كبرى وصغرى ونتيجة، لَمَّا تقول كل الموجودين في هذه القاعة أطباء، سامر موجود في هذه القاعة، المدخلات صحيحة، المُخْرَج سامر طبيب، المقدمة الكبرى والمقدمة الصغرى، والعقل عمل بينهم ربط فقط، فهذه مهمة العقل أن يقوم بالربط، لكن لَمَّا جعل أصحاب المدرسة العقلانية العقل هو المدخلات، وقعت الطامة، لَمَّا قال لك عقلي يقول لي! عقلك لا يقول لك، الشرع يقول لك وعقلك يفهم الشرع، فنحن لا نُعطل العقل، ولكن نضعه في مكانه الذي ينبغي أن يوضع فيه.

قال: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ □ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) يعني عاب عليهم أنهم يشكرون قليلاً فكيف بمن لا يشكر أصلاً؟! هذا يشكر لكنه قليل الشكر، النعم كبيرة والشكر قليل.

كل شيء في الكون يدل على وجود الله الواحد وأنه سبحانه وسيعاقب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79)

(سورة المؤمنون)

أَيُّ بَنَاتِكُمْ وَنَشْرِكُمْ فِي الْأَرْضِ (وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) يعني تفريقكم في الأرض لا بعبيته ولا يتعبه أن يُعيد جمعكم إليه للحساب (وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80)

(سورة المؤمنون)

فلا مُحييَ غيره ولا مُميتَ غيره (وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) يختلف الليل والنهار طولاً وقصراً نوراً وظلاماً، أحياناً يستوي الليل مع النهار في يوم مُعيَّن في السنة، في الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي، ثم يطول الليل ويقصر النهار أو بالعكس، فاختلاف الليل والنهار بالطول والقصير، اختلافهم عند الغروب يبدأ يتسلل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6)

(سورة الحديد)

ليس كغرفة مظلمة يضغط على الزر فتضيء أو العكس، لا، لكنه إيلاج، يُدخل الليل في النهار ويُدخل النهار في الليل بلطف. (وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) يعني ألا تستخدمون هذه المعطيات التي بين أيديكم، من أجل أن تعقلوها فتصلون إلى أنَّ الله عزَّ وجل موجود، وواحد، وكامل، وسُحاسب، وسُعاقب، هذا (أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

أكبر مصيبة أن يحتكم الإنسان إلى العُرف وليس إلى الشرع:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81)

(سورة المؤمنون)

لم يتبعوا مرجعية الشرع، اتبعوا مرجعية الآبائية (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ) هذه مصيبة كبرى عند الناس، عندما يقول لك وجدنا آباءنا، تقول هل يوجد الآن أحد يقول وجدنا آباءنا؟! ما أكثرهم ولكن بصيغ مختلفة، يعني تبدأ بوجدنا آباءنا، أنا هكذا أبي ربَّاني أنا لا أستطيع أن أعير، نحن حفلاتنا دائماً مختلطة أنت لا يمكن أن تُعير العائلة، نحن طول عمراً نجلس مع بعض، هذه مثل أختك، وهذه مثل أمك، لا يوجد مشكلة، لا تُفريق العائلة بالحجاب وكذا، نحن هكذا، أنا أعرف عائلات ممنوع الحجاب فيها، يعني أعرف أناساً معرفة بعيدة، لكن أعرفهم الحجاب ممنوع لأننا تربينا هكذا، نحن لا يوجد عندنا بالعائلة أحد يتحجب، نحن نُصلي ونتصدق لكن لا أحد يتحجب مثلاً، لأن هذه فكرة الآبائية، وتنتقل إلى مراحل متقدِّمة فكرة الآبائية فيصبح العُرف هو المجتمع، يعني أبي، قبيلتي، عشيرتي، نحن نأخذ حقنا بيدنا، نحن إذا قُتل واحد نقتل عشرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74)

(سورة الشعراء)

هذه مصيبة أن يحتكم الإنسان إلى العُرف لا إلى الشرع، يعني نحتكم إلي القانون ليس صحيحاً، ولكن يبقى هناك شيء يحكمه، أمَّا الاحتكام فهو للشرع، لأنَّ المرجعية إمَّا تكون شرعاً أو عُرفاً أو قانوناً، دقق في الناس كلها، إذا جلست مع شخص مثلاً شريكك واختلقتهم، أول خلاف بينك وبين شريكك بالعمل إذا قال لك أنا أخرج العقد، هذا يعني مرجعيته القانون، هناك محاكم قانون، لنرى المحامي قانون.

إذا قال لك دعنا نرى تجار السوق ماذا يفعلون، هذا عُرف، دعنا نرى العُرف ماذا يقول، أنا في حياتي لم أدخل تجارة كهذه، أنا طول عمري أعمل هكذا، هذا عُرف، طبعاً ليس كل العُرف غلط، وليس كل القانون غلط، انتبهوا أنا أوصف كيف يحتكم الناس، أحياناً هناك أعرافٌ صحيحة توافق الشرع، على العين والرأس، وأحياناً يوجد قوانين صحيحة وعقدٌ صحيح، وهو من ضمن الشرع، والعقد ما لم يخالف نصّاً شرعياً فهو شريعة المتعاقدين، لكن نحن نتكلم كيف الناس يتبعه، أمّا من يقول لك دعنا نسال الشيخ الفلاني، دعنا نرى الشرع ماذا يقول، ألا تسمع ربنا عزّ وجل يقول كذا، كلام الله، سيرة رسول الله، هذا مرجعيته الشرع، نحن دائماً يجب أن نُعزّز المرجعية الشرعية، العُرف والقوانين تابعة للشرع، فما يوافق منها الشرع نأخذ به، لكن مرجعيتنا الشرع، لكن أسوأ انتقائية بالشرع هي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49)

(سورة النور)

يعني عندما يكون الحقّ معي وأعرف أن الشرع يحكّم لي، فأقول لك نحن كتاب الله وسنّ رسول الله، وإذا كنت أعرف أنّ الشرع ليس معي، أقول لك أنا القانون يحكم لي، هذه انتقائية هذه غير منطقية، وخيرٌ منها أن يقول لك أنا مع القانون، من أن يتبع الشرع إذا وافق هواه، وأن يتركه إذا لم يوافق هواه.

ما معنى الأساطير؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82)

(سورة المؤمنون)

مثل حال يقول آباؤنا، بعد الموت هناك بعث؟!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَتَسْبِي خَلْقَهُ □ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) فَلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ □ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)

(سورة يس)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)

(سورة المؤمنون)

آباؤنا هنا الآبائية (لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ) أي البعث، لكن ما رأينا شيئاً، لم نجد إنساناً مات وبعث (إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) الأساطير جمع أسطورة، والأسطورة هي ما يُسطر في الكتب، ولا تُطلق إلا على الشيء الذي ليس له حقيقة، فيقال لك هذه العنقاء أسطورة غير موجودة، يعني لا يوجد مخلوق اسمه العنقاء، لكن سطرّوها فصارت أسطورة، أسطورة الإلياذة مع اليونان، يوجد مرض يُسمونه اضطرد إن صحّ التعبير، أو تسطير، أو جعل التاريخ أسطورة، الناس دائماً يُحبون أن يعتزّوا بالتاريخ كثيراً، فهناك أساطير كثيرة في التاريخ، فاليونان عندهم أساطير لم تحدث، يعني هذه القصة لم تحصل بهذا الشكل، لكن ليخلدوا أبطالهم فيجعلوهم أسطورة. والبعض يهّمهم تاريخنا الإسلامي أن فيه أساطير فيقول لك: كيف سيدنا جعفر أخذ الراية بيمينه فقطعت يمينه، ثم أخذها بشماله وضمّها ب صدره، ألم يتألم؟! كيف عروة بن الزبير قطعوا له قدمه وأغمي عليه، فقال خذوها وأنا أصلي حتى لا أشعر؟!

السموات السبع، هم لم يروا إلا سماء، لكن ما قالوا وهي سماوات سبع، معناها في الكتب السابقة أو في معلوماتهم السابقة أنّ السماوات سبع، يعني هم مُقَرَّنون بهذه الحقيقة. (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ) أيضاً العرش من الغيب، مخلوق من مخلوقات الله، (وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).

المشركون لم يُنكروا الربوبية لكنهم لم يُحسنوا التوجه إلى الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَيَقُولُونَ لِيَلَهُ قُلُوبٌ أَقْلًا تَتَّقُونَ (87)

(سورة المؤمنون)

يعني ألا تتقون عذاب الله، ألا تتقون النار التي أعدّها الله، مادام الله تعالى هو الربّ، الربّ من الربوبية، هو المالك، هو المعطي، هو المانع، هو الخافض، هو الرافع، هو المُمَدِّد، كل هذه المعاني في الربوبية، المشركون والمنكرون للبعث ما كانوا ينكرون الربوبية، يعني عقولهم قادتهم إلى أنّ الله تعالى ربّ، لكن لم يحسنوا التوجه إليه، ولم يؤمنوا بالآخرة التي سيحاسب الله الناس فيها، فما نفهم إيمانهم، أن تقول أنّ الشمس ساطعة وهي ساطعة، ثم لا تخرج فتعرض لها لتشفى من المرض الجلدي الذي أصابك، يعني لن أقول المستويان كبعضهما تماماً لكن النتائج متقاربة، إن أنكرت سطوعها لن تنتفع بها، وإن أقررت بسطوعها ثم لم تتعرض لها فلن تنتفع بها، فالمشركون كان عندهم مفهوم الربوبية واضح، ربنا الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25)

(سورة لقمان)

لكن كان عندهم مشكلة في التوجّه إلى الله، ومشكلة في الإيمان بما أعدّه الله لمن أطاعه ولمن عصاه، فذلك هم كافرون ومشركون. (سَيَقُولُونَ لِيَلَهُ قُلُوبٌ أَقْلًا تَتَّقُونَ) طبعاً قد يكون صائب (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ) الجواب قل الله وليس لله، لله على تقدير، طبعاً يوجد قراءة قل الله، من رب السماوات والأرض الله، في قراءة حفص قل لله يعني الربوبية لله، المُلْكُ لله، يعني على تقدير الشيخ، فكل واحدة تعطي معنى، كأن يُسأل العبد من مولاك؟ فيقول: لفلان لا يقول فلان، يقول لفلان يعني أنا مملوك لفلان، هنا تقدير (سَيَقُولُونَ لِيَلَهُ) أي الربوبية، المُلْكُ، الخلق، التدبير لله وحده (قُلْ أَقْلًا تَتَّقُونَ).

الله جلّ جلاله هو وحده ذو الملكوت وصاحب القدرة المطلقة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ مَنْ يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88)

(سورة المؤمنون)

هناك مُلْكُ، وهناك ملك، وهناك ملكوت، المُلْكُ أن تملك الأشياء، والهَلِكُ أن تملك الأشخاص ومن معهم، والملكوت هو أن يملك الأشياء غير الظاهرة لك، فرنا له الملكوت وحده، لأنّ هناك أشياء كثيرة لا نراها، السماوات السبع نحن لم نراها هي ملك لله، الكواكب التي لم نصل إليها هي ملك لله، فكل شيء حتى الذي لا نراه هذا يُسمّى الملكوت.

(قُلْ مَنْ يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) يُجِيرُ يعني من الجار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ رَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ تَكَمَّنَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (88)

وسُمِّيَ الجار جاراً لأنه يُجِيرُكَ إن طلبت جواره، وكانت العرب من يطلب جوارهم لا يخبونه، فعندنا مُجِير وهو الذي يُجِيرُ الشخس الذي جاء إليه، ومُجَار وهو الذي يُجَار من فلان، ومُجَارٌ عليه وهو الذي يُمنع منه، فإنا أجير فلاناً فإنا مُجِير، وهو مُجَار، وهناك مُجَارٌ عليه، أجرنى من فلان، فالله تعالى (وَهُوَ يُجِيرُ) يعني إن طلبت جواره أجارك، وإن طلبت غوثه أغانك، وإن طلبت عفو عفا عنك، مُجِير.

(وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) أي لا يُمنع منه، فإذا أراد بك شيئاً لا تستطيع جهةً أن تُجِيرَكَ من الله (وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ)، نحن كلنا قد نُجِير ولكن يُجَار علينا حتماً لأنَّ قدرتنا محدودة فَيُجَار علينا، لكن الله تعالى قدرته مُطلقة فلا يُجَار عليه لكنه يُجِير وهذا ليس إلا لله، هنا يُخاطب العرب الذي يعرفون معنى أن تُجِير (وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ (89)

(سورة المؤمنون)

يعني الجيرة لله وحده، والملكوت لله وحده (قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ) تسحرون أي تُصرفون عن الحق، السحر هو الوصول إلى الشيء بلطف، فسُمِّيَ السحر سحراً (فَأَنَّى تُشْحَرُونَ) بمعنى أين تذهبون بعقولكم؟! كيف لا تستجيبون لربكم؟! كيف تُعرضون عنه بعد كل ذلك؟! لها معاني متعددة في القرآن (فَأَنَّى تُشْحَرُونَ) أي فَأَنَّى تُصرفون؟ قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90)

(سورة المؤمنون)

بل حرف إضراب، يعني كل هذا الذي مضى منكم من الإنكار لا صحة له (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) الحق قائم والحقيقة واضحة، لكنهم يكذبون على الله، ويكذبون على أنفسهم، هذا والله تعالى أجل وأعلم.

اللهم فرجك ونصرك وعتقك لأهلنا في غزّة، وفرجك عن عبادك المستضعفين في كل مكان يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين.